نظرية الأجناس الأدبية

المحاضرة الرابعة

نماذج من ملاحم الغرب والشرق

1-الإلياذة لهوميروس:

- النشيد التاسع: إرسال الوفد لاسترضاء أخيل

نسج الخيال اليوناني عدة أساطير حول أحداث تاريخهم. وكان الشعراء يتنقلون من مدينة إلى أخرى ومن قصر إلى آخر، ينشدون الشعر على نغم القيثارة، ويتغنون بفعال أعاظم الرجال والأبطال مقابل الضيافة والقوت وبعض الهبات، ومن تلك الأناشيد الإلياذة ومنها هذا المشهد الذي ملخصه:

اجتماع أغمامنون مع قادته من أجل التشاور حول أمر الحرب وارتأى العودة إلى الأوطان، فعارضه (ديوميذ) ثم (نسطور)، فأقاموا الحرس وأولم (أغمامنون) للزعماء. فقام (نسطور) خطيبا وأتى على تعداد ما يعد من التحف لأخيل شريطة أن يرعوي ويلين، فأرسلوا وفدا إلى (أخيل) يرأسه (أوذيس) فخفوا إليه وألفوه ينشد على نغم قيثارة، فاحتفى بهم وأولم لهم، ولما فرغوا من الطعام خطب (أوذيس) في مجلس أخيل فذكره بوصايا أبيه وأطمعه بوعود (أغمامنون) واستحلفه أن يرفق بقومه الإغريق وإن كان موغر الصدر على (أغمامنون) فما كان من أخيل إلا أن استشاط حنقا وأبى الإقدام على الحرب لمعاضدة الإغريق الذين نزعوا إلى الراحة[1]

انجرّ عن انسحاب (أخيل) من الحرب، تغلب الطرواديين على اليونانيين بقيادة البطل (هكتور) لذا تمضي الوفود الإغريقية إلى أخيل، تحاول استرضاءه، بعد ما استجاب

[1] ينظر: هوميروس، الإلياذة، تر: سليمان البستاني مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ت، د. ط، ص486 وما بعدها

(أغمامنون) لنصيحة (نسطور) وأعد الهدايا وجهزت القرابين وذبحت للآلهة، وتفاءل الجميع، فقد جاء على لسان الملك أغمامنون:[2]

شعب الآخيين لقد كنت أعمى، عندما خضعت

لحماقاتي، ولكي أصلح ما فعلته فسأقدم له فدية

لا تعد ولا تحصى، وأعلم أمامكم هداياي:

سبعة مقاعد ثلاثية لم تمسها النار، عشرة تالنتات

من الذهب، عشرين وعاء من النحاس اللامع،

اثنتي عشر جوادا من جياد السباق القوية التي تحصد الجوائز لسرعة أقدامها. لن يكون فقيرا

أبدا من يحصل على هذه الأشياء، ولن يحتاج للذهب

من يحصل على هذا الكنز، فقد أحرزت لي

جيادي الأصيلة الكثير منه في السباقات.

وسوف أمنحه سبع نساء ماهرات لا نظير

لهن جلبتهن من ليسبوس، جميلة المباني

عندما فتحها هو نفسه، وكنت قد اخترتهن

لجمالهن الفائق، سوف أقدمهن له

بالإضافة إلى الفتاة التي أخذتها منه

ابنة بريسيوس. وأقسم بأغلظ الإيمان

أني لم أقفز إلى فراشها

[2] هوميروس: الإلياذة، تر: أحمد عثمان، لطفي عبد الوهاب وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2008، ص341 وما بعدها

ولم تربطني بها قط العلاقة المعتادة بين الرجل والمرأة
كل هذه الأشياء سوف تكون ملكا له في الحال. وإذا ما
قدرت لنا الآلهة أن نستولي على مدينة برياموس
العظيمة، فسوف أجعله يملأ سفينته بالذهب والبرونز،
قبل أن نقتحم نحن الآخيين المدينة، ونبدأ في توزيع
الغنائم، وسوف أدعه يختار لنفسه عشرين امرأة من
الطروادیات من بين أجمل النساء بعد هيلينا الأرجية
وإذا ما وصلنا إلى أرجوس الآخية، أخصب
الأرضين، سوف أعامله كابني، وسوف أحبه مثلما
أحب ابني أوريستيس الذي ربيته في رفاهية ونعيم لشدة
حبي له، ومن بين بناتي الثلاث الموجودات في قصري
فليأخذ من تروق له إلى بيت بيليوس
دون أن يقدم هدايا الزواج، بل سوف أعطيها
أنا هدايا كثيرة قيمة. لم يقدمها أحد لابنته
من قبل قط، سوف أمنحه سبع مدن عامرة بالسكان
وكلها قريبة من البحر وتقع على حدود بيلوس
كثيفة الرمال. ويملك سكان هذه المدن الكثير
من الماشية والثيران، وسوف يبجلونه كما لوكان إلاها
ويقدمون له الهدايا، وعندما يحكمهم

سوف يقدمون له فرائض الطاعة

كل هذا سوف أقدمه له إذا ما تخلى عن غضبه

وأذعن، فإن هاديس فقط هو الإله الذي يتصف بالعناد الشديد

لذلك فهو من بين جميع الآلهة الخالدين كريه لدى كافة البشر

الفانين فليذعن لي، فأنا أقوى منه سلطانا، وأنا أتوسل إليه

رغم أنني أكبر منه سنا

لم يجد خطاب المعلم (فينكس) نفعا وظل (أخيل) على عناده وموقفه المتصلب، فقد أطال الأستاذ استرضاءه والاعتذار منه، وذكره بما حظي به من عناية من قبله، حتى أصبح بمثابة ابنه ثم تلاه (آياس) لكن كل هذه الاعتذارات لم تأت أكلها، وكان بالمجلس صديق أخيل باتروكلوس:[3] يستمع ويشاهد الجمع، فكان أن تأثر تأثرا كبيرا ما دفعه للإقبال على الحرب لا حقا وموته.

ظل أخيل مصرا على رأيه رافضا الإقدام على الحرب، فقد جاء في رده على أوديسوس:

"إنني أكره الرجل الذي يخفي في قلبه أمرا

ويعلن أمرا آخر، كراهيتي لبوابات هاديس

ولكنني سوف أعلن ما يبدو أفضل الأشياء بالنسبة لي

أعتقد أن أغمامنون ابن أتريوس، لن يستميلني أبدا

ولا جميع الدانانيين، فما من كلمة شكر قدمت لي

عندما كنت أحارب الأعداء دون هوادة

فمصير من يتكاسل ومن يحارب واحد

[3] هوميروس، الإلياذة، ص350 وما بعدها

ويلقى الجبان والمقدام التقدير نفسه، فالذي
يكافح كثيرا والذي لا يكافح مطلقا يموتان الميتة نفسها
وما جنيت فائدة قط من الصعاب التي كابدتها روحي
والتي تربط حياتي بالخطر وإشعال الحروب
لقد دمرت اثنتي عشر مدينة بسفني، وإحدى
عشر مدينة سيرا على قدمي عبر أراضي طروادة الخصيبة.
كثيرة هي وعظيمة تلك الكنوز التي غنمتها من هذه
المدن والتي كنت أحملها كلها إلى أغمامنون بن أتريوس
وأعطيها له، بينما يبقى هو في الخلف
بجوار السفن ليستقبل ما أعطيه له، فيوزع القليل ويحتفظ
لنفسه بأكثرها، وعندما كان يعطي مكافأة الملوك
والنبلاء، كانت يده لا تمتد إليها ثانية. ولكنه أخذ
محظيتي أنا من بين جميع الآخيين، وهو ينعم بقربها
الآن. ولكن لماذا ينبغي أن أحارب الأرجيين
الطرواديين؟ لماذا أبحر ابن أتريوس
وحشدوا الجيوش هنا؟ من أجل هيلينا جميلة الشعر
أليس كذلك؟ أم أن ابنا أتريوس هما فقط بين
البشر اللذان يحبان زوجتيهما؟ إن الرجل النبيل الفطن
يحب زوجته ويهتم بأمرها. وكذا أحببت أنا

أيضا زوجتي، رغم أنني حصلت عليها بحد السيف.

فدعه لا يحاول الآن، وقد أخذ جائزتي وخدعني

أن يستميلني ثانية، فأنا أعرفه جيدا فلن أذعن له

وليتشاور معك يا أودسيوس ومع الملوك الآخرين

كيف يجنب السفن خطر نيران العدو، فقد قام بأعمال كثيرة بدوني

وليبحث الآن كيف يصد هكتور، شبيه

الآلهة، فسوف أقدم القرابين غدا لزويوس ولجميع الآلهة

أن أغمامنون لن يسيطر على روحي

حتى لو أعطاني هدايا بعدد حبات الرمل

بسبب ما لحقني منه من إهانة.

.....

وحيث أنكم سوف تذهبون للقاء ملوك الآخيين

فلتعلنوا لهم رسالتي بصراحة، فتلك هي مهمة الشيوخ

أن يعملوا عقولهم ويفكروا في خطة أفضل تنقذ السفن

وتنقذ شعب الآخيين الموجود في السفن المجوفة، حيث أن الخطة

التي أعلنوها وهم لا جدوى منه، فإن غضبي لا يهدأ بعد

وما نستخلصه من النشيد التاسع:

-النص وثيق الارتباط بأحداث التاريخ (الحرب الواقعة في بحر إيجا)

-هيمنة الحوار في النص ومن وظائفه الإثارة والإخبار وتقديم الحجة والاستطراد...

-تبدو شخصية أخيل قوية صلبة وعنيدة، فهو بطل لا يقهر، شجاع باسل في الحروب، يغار على شرفه، ويرفض مواصلة الحرب بسبب إهانة الملك أغمامنون وسلبه المرأة خاصته

- توفر النص على عنصر الصراع وهو نوعان داخلي يعيشه الأبطال (أخيل على سبيل المثال) وخارجي بين الطرفين المتحاربين والشخصيات غير المنسجمة (الملك والقائد أخيل)

-تبدو صورة المرأة في المشهد متناقضة؛ بين السبي والدفاع عنها (الذود عن شرفها)

-يتوفر المقطع على البعد الأسطوري الذي تتسم به الشخصيات وأفعالها (أخيل على سبيل المثال الذي تصوره الإلياذة على أنه نصف إله)

2-ملحمة جلجامش

-مقاطع من الفصل الأول والثالث

تتضمن الملحمة اثنتي عشر لوحة مكتوبة بالبابلية، وقد ظهرت في القرن (7ق.م) وتقسم إلى الفصول أو الأجزاء الآتية:

-لقاء جلجامش بالبطل أنكيدو

- مغامرات جلجامش وأنكيدو

-موت أنكيدو وحزن صديقه عليه وسعيه وراء الخلود

-رحلة بحث جلجامش عن الخلود

ويمكن أن نقف على المقاطع الآتية:

جاء في الفصل الأول (جلجامش وأنكيدو)

اللوح الأول:[4]

.....

بعد أن خلق جلجامش وأحسن الإله العظيم خلقه

حباه "شمس" السماوي بالحسن، وخصه "أدد" بالبطولة

جعل الآلهة العظام صورة جلجامش تامة كاملة

كان طوله أحد عشر ذراعا وعرض صدره تسعة أشبار

ثلثان منه إله، وثلثه الباقي بشر

وهيئة جسمه لا نظير لها

وفتك سلاحه لا يصده شيء (لا شيء يماثله)

وعلى ضربات الطبل تستيقظ رعيته

لازم أبطال "أوروك"* حجراتهم متذمرين شاكين

لم يترك جلجامش ابنا لأبيه

ولم تنقطع مظالمه على الناس ليل نهار

ولكن جلجامش هو راعي "أوروك" السور والحمى

إنه راعينا قوي وجميل وحكيم

لم يترك جلجامش عذراء لحبيبها ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل

وأخيرا سمع الآلهة شكواهم

.....

[4] ملحمة جلجامش (أوديسة العراق الخالدة)، الحرية للطباعة والنشر، بغداد (كتاب الكترونيwww.alkottob.com) ص35

*أوروك: مدينة بابلية

ولما استمع "آنو"* الجليل إلى شكواهم دعوا 'أرورو" العظيمة وقالوا لها

يا "أورورو" أنت التي خلقت هذا الرجل بأمر "أنليل"

فأخلقي الآن غريما يضارعه في قوة القلب والعزم

وليكونا في صراع مستديم لتنال "أوروك" السلام والراحة

.....

غسلت "أورورو" يديها وأخذت قبضة طين ورمتها في البرية

خلقت في البرية "أنكيدو" "الصنديد"، نسل "ننورتا"

يكسو جسمه الشعر، وشعر رأسه كشعر المرأة[5]

.....

المقطع الثاني: ويصور رؤية جلجامش الأولى والثاني وتفسير أمه العارفة للرؤيتين، ثم قدوك أنكيدو إلى المدينة وصراعه مع جلجامش، وبداية ظهور بوادر علاقة الصداقة بينهما ثم أسفارهما مع إلى جزيرة الأرز المسحورة التي يحرسها "خمبابا" وعودتهما إلى أوروك منتصرين

"قالت ننسون** العارفة بكل شيء

إن رؤيتك كواكب السماء

وقد سقط أحدها عليك وكأنه شهاب السماء "أنو"

والذي أردت أن ترفعه فثقل عليك

والذي أردت أن تزحزحه فلم تستطع

---

[5] طه باقر: ملحمة جلجامش ص38 وما بعدها

** ننسون: أم جلجامش

***آنو: كبير الآلهة

وانحنيت عليه كما تنحني كما تنحني على امرأة، وجيئت به ووضعته عند قدمي فجعلته أنا نظيرا لك

إنه صاحب لك قوي يعين الصديق عند الضيق

إنه أقوى من في البرار، وعزمه مثل عزم "آنو"***

وأما أنك انحنيت عليه كما تنحني على امرأة فمعناه أنه سيلازمك ولن يتخلى عنك

وهذا هو تفسير رؤياك[6]

.....

ثم رأى جلجامش حلما ثانيا فقصه على أمه

.....

في أوروك ذات الأسوار رأيت فأسا مطروحة وهي ذات شكل عجيب

وكل الناس متجمعين حولها

.....

فقالت "ننسون" المتبحرة في كل معرفة لجلجامش

إن الفأس التي رأيت معناها رجل

.....

فتح جلجامش فاه وقال مخاطبا أمه:

عسى أن يتحقق هذا الفأل العظيم فيكون لي صاحب[7]

وجاء في مشهد التلاقي بين أنكيدو وجلجامش

---

[6] ملحمة جلجامش، ص45 46

[7] ملحمة جلجامش، ص نفسها

رأى جلجامش "أنكيدو" الهائج

الذي ولد في البادية ويجلل رأسه الشعر الطويل

فانقض عليه وهاجمه

تلاقيا في موضع السوق

سد أنكيدو باب بيت العرائس بقدميه ومنع جلجامش من الدخول إلى الفراش

أمسك أحدهما بالآخر وهما متمترسان بالصراع

وتصارعا وخارا خوار ثورين وحشيين

حطما عمود(قائم) الباب وارتج الجدار

وحينما ثنى جلجامش ركبته وقدمه ثابتة في الأرض (ليرفع أنكيدو)

هدأت سورة غضبه واستدار ليمضي

ولما استدار يريد الذهاب بعد أن هدأ غضبه كلمه أنكيدو قائلا له

إنك الرجل الأوحد، أنت الذي حملتك أمك

ولدتك أمك "ننسون" البقرة الوحشية

ورفع أنليل رأسك عاليا على الناس

وقدر إليك الملوكية على البش"ر[8]

وفي الفصل الثالث يموت أنكيدو، ويحزن صديقه جلجامش عليه ويقرر السعي من أجل الخلود

"نادى في صناع المدينة وصاح:

[8] المصدر نفسه، ص49، 50

أيها الصغار(النحاس) والصائغ والجوهري وناقش الأحجار الكريمة

اصنعوا تمثالا لخلي

.....

على فراش المجد أضجعتك

وأجلستك على كرسي الراحة إلى يساري

كيما يقبل أمراء الأرض قدميك

سأجعل أهل أوروك يبكون عليك ويندبونك

وسيحزن عليك أهل الفرح والموسرون وسأجعلهم يقربون إيك

وأنا نفسي بعد أن توسد في الثرى سأطلق شعري

سألبس جلد الأسد وأهيم على وجهي في البراري

.....

إذ كيف أهدأ ويقر لي قرار

وصديقي الذي أحببت قد صار ترابا

وأنا أفلا أكون مثله وأضطجع ضجعة لا أقوم من بعدها

أبد الدهر؟

.....

والآن يا "أورو شنابي" أين الطريق إلى "أوتو نبشتم"[9]

وتخاطبه فتاة الحانة:

[9] ملحمة جلجامش، ص73 وما بعدها

إلى أين تمضي يا جلجامش؟

وإلى أين تسعى بك القدم؟

الحياة التي تبحث عنها لن تجدها؛

لأن الآلهة لما خلقت البشر

جعلت الموت لهم نصيبا

وحبست في أيديها الحياة[10]

لقد عاد جلجامش خائبا من رحلة البحث عن الخلود، ولكنه في المحصلة عرف شيئا عن هذه الحياة (حياة ما بعد الموت) بعد أن ظهرت له روح أنجيدو خيالا متحركا، وحين سأله عن ماهية حياته رفض الإجابة خوفا عليه من البكاء والحزن، ولكن جلجامش الذي أصر على أن يعرف نهاية القصة، فأخبره: أن الجسد الذي كان يعانقه قد تهالك تماما "صديقك الذي كنت تمسك بيده فتحس بنشوة السعادة قد تحول إلى رماد، لقد غاض في وسط التراب ثم أصبح رمادا.."[11]

خلاصة

تمثل تراجيديا الحياة في قمتها، إنها في طريقة استغلالها للأساطير المختلفة: أسطورة الإنسان الإله، وأسطورة الإنسان الحيوان وأسطورة الصراع بين آلهة الحب والبطل الجميل، وأسطورة الطوفان، بطريقة شاعرية وفلسفية معا للتعبير عن فكرتها الكبرى، كفيلة بأن تخلد، بل أن تقف جنبا إلى جنب مع الآثار الأدبية العالمية

وأهمية هذه الملحمة بوصفها شعرا ملحميا، وبعدها الصورة الأولى المعبرة عن ظهور الوعي الإنساني الحقيقي بوجوده ومصيره، ومحاولته الخروج عن المألوف وكسر القوى الحاكمة لدى الأمم القديمة التي تجسدت في الأساطير والملاحم السابقة، حيث لم يكن للإنسان فيها وجودا

---

[10] المصدر نفسه ص نفسها

[11] نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، مكتب غريب للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، د.ط، ص58

حقيقيا وكيانا واعيا بمصيره، بل كان تابعا لمشيئة الآلهة، مطيعا لأوامرها، في حين كان أبطال ملحمة جلجامش من البشر، وليس الآلهة، التي بدا دورها ثانويا ومساعدا، بل أصبح الإنسان (جلجامش وأنكيدو) يردون مكائد بعضها، ويضعون حدا لطيشها.

ومن زاوية أخرى انطوت الملحمة على صور إنسانية رائعة: كقصص الحب والصداقة والشجاعة والبطولة وروح المغامرة والحزن والبكاء على الأحبة...